الأبعاد الخطابية في آيات الإمامة
سورة المائدة أنموذجًا

م. د خير الدين علي الهادي سليمان جامعة الحمدانية / كلية التربية/ العراق

الملخص

يدرس هذا البحث آيات الإمامة في سورة المائدة المباركة، في محاولة لبيان أثرها في توجيه الخطـــاب؛ إذ كانت زيادة على تكاملها الموضوعي موضحة لأحكام نصوص هذه الســـورة، فضلًا عن عناية البحث بإيضـــاح المواقف المتباينة في الروايـــات والنُّقول في بيان معـــاني هذه الآيات، ولعل أهميَّـــة الموضوع تعلل اختلاف السلف في توجيه مضامين هذه الآيات، ولاسيَّما أنَّ كثيرًا من الناس لم يلتفتوا إلى خطورة الأمر؛ لذلك لم يلتزموا بأقوال المعصومين (عليهم السلام) في بيان مقاصد هذه الآيات؛ ولعلَّ ســـبب اختلافهم مبنـــيّ على عوامل عدَّة تتعلق بمصالح قوم لم يرغبوا في إســـناد أمر الإمامـــة إلى أهلها، أو لربَّما تغافل بعضهم بسبب الانحراف العقائدي الذي تبنَّوْهُ بعد تساهلهم في الحصول على مصادر دينهم ومشـــارب علمهم من المناهل الصحيحة التي يمكن معها اتقاء

المفاسد المترتبة عن الغفلة، أو التمادي في الأمر.

لذلك اجتهد الباحث في الكشـــف عن الأبعاد الخطابية من طريق متضمنات القول بوصفها قراءة ضمن الأبعـــاد الخطابية للآيات المحددة بملاحظة البيئة عند استعمال الخطاب، وقراءة الموضوع على وفق ما أُثر عن أهله من المعصومين (عليهم السلام) فهم أعلم الناس بتوجيه الخطاب القرآني الذي نزل في ديارهم فكانوا أهله ومستودعه.

الكلمات المفتاحيَّة: (الخطاب، الإمامة، سورة المائدة).

Abstract

The verses regarding Imamate represent an important aspect within the blessed verses of Surah Al - Ma'idah, maintaining a significant presence in guiding the discourse. These verses, beyond their thematic integration, elucidate their rulings. This necessitates the community's adherence to their details, which have been subject to diverse interpretations and understandings among Muslims due to varied narratives and perspectives based on different chains of transmission and narrators. The significance of this subject justifies the differences among the early generations regarding it, especially since many people overlooked its importance, leading them to diverge from the statements and interpretations of the infallibles (peace be upon them) on the matter.

Deliberating on the subject of Imamate and discussing its Quranic texts isn't an innovation; it spans through ages. There were various readings influenced by emotional bias and narrow inclinations that hindered scholarly research, constraining inquiry and controlling its outcomes. Therefore, this research aims to delve into the discursive dimensions, considering the

contexts of the discourse, and examine the subject according to what has been attributed to its rightful bearers among the infallibles (peace be upon them), as they were the most knowledgeable about directing the Quranic discourse revealed in their territories, being its people and guardians.

key words: the speech, Imamate, Surah Al - Maidah.

المقدمة

إنّ المُتتبِّع لنصوص سـورة المائدة المباركة ليجدُ أنّ آيات الإمامة فيها لها أثرٌ كبيرٌ في توجيه الخطـاب؛ إذ كانت زيادة على تكاملها الموضوعـي موضحة لأحكامها، واقتضى ذلـك ضرورة التزام الأمّة بتفاصيلها التي اختُلف في تفسـيرها فضلًا عن تأويلها؛ بسبب المواقف المتباينة في الروايات والنُقول المستندة إلى أرباب الحديث على اختلاف أسـانيدها وروَّاتها، ولعل أهميَّة الموضوع تعلل اختلاف السلف في توجيه مضامين هذه الآيات، ولاسيَّما أنَّ كثيرًا من الناس لم يلتفتوا إلى خطورة الأمر؛ لذلك لم يلتزموا بأقوال المعصومين (عليهم السـلام) في بيـان مقاصد هذه الآيات؛ ولعلَّ سـبب اختلافهم مبنيّ على عوامل عدَّة تتعلق بمصالح قوم لم يرغبوا في إسـناد أمر الإمامة إلى أهلها، أو لربَّما تغافل بعضهم بسبب الانحراف العقائدي الذي تبنَّوْهُ بعد تسـاهلهم في الحصول على مصادر دينهم ومشـارب علمهم من المناهل الصحيحة التي يمكن معها اتقاء المفاسد المترتبة عن الغفلة، أو التمادي في الأمر.

إنَّ الوقـوف على موضوع الإمامة ومفاتشـة نصوصها القرآنيـة ليس بدعًا؛ بل أمر امتدَّ لعصور خلت، وكانت هنـاك قراءات مختلفة، بعضها جاءت متأثرة بالبعد العاطفي والميول الضيقة التي من شـأنها أنْ تقضي على البحث العلمي، وتعمل على تحجيـم البحث ومصادرة نتائجـه؛ لذلك اجتهد البحث في الكشـف عن الأبعاد الخطابية من طريق متضمنـات القول بوصفها قراءة ضمن الأبعاد الخطابية للآيات

المحددة بملاحظة البيئة عند استعمال الخطاب، وقراءة الموضوع على وفق ما أُثر عن أهله من المعصومين (عليهم السلام) فهم أعلم الناس بتوجيه الخطاب القرآني الذي نزل في ديارهم فكانوا أهله ومستودعه.

ولَمَّا كان الدَّرس اللساني على حداثته مستوعبًا لكثيرٍ من المجالات المعرفية اللغوية توجَّه المهتمُّون بالشأن القرآني إلى استثمار مبادئه ونظرياته لخدمة الخطاب القرآني ودراسته؛ لذلك سنقف على مباني تحليل الخطاب في باب متضمنات القول مستعينين بالتفاسير التي آثرت نقول المعصومين (عليهم السلام) في توجيه الخطاب القرآني، وسنعمد دراسته ضمن آيات سورة المائدة التي كانت قد استوعبت آخر ما تنزَّل من القرآن الكريم؛ عسى أنْ نقدِّم شيئًا من الخدمة للخطاب القرآني بشكلٍ عامٍ، وآيات الإمامة في سورة المائدة بشكل أخص، منطلقين من تطبيقات مستويات تحليل الخطاب للوصول إلى النتائج المرجوَّة.

ومن الجدير ذكره أنّ الوقوف على هذا الموضوع تطلب قراءته في مبحثين، خُصِّص أولهما لدراسة يتقدمهما مقدمة وتتلوهما نتائج ثبتت بعد رحلة علمية ماتعة بين المصادر والمراجع في محاولة لإعطاء البحث ما يتطلبه من نوافذ معرفية من شأنها أنْ تعمل على توجيه الموضوع بما يتناسب مع المقام.

المبحث الأول: الأبعاد الدلالية لآيات الإمامة في سورة المائدة وأسباب النزول

تعددت آيات الإمامة في سورة المائدة، واتفقت على وحدة الموضوع على الرغم من تباينها من جهة المتخاطبين، وكأن في الخطاب دعوة ضمنية عامَّة تؤكد عمومية الشمول وخصوصية الموضوع، ومن الآيات التي جاءت مبيِّنة لموضوع الإمامة في سورة المائدة على وفق التسلسل الوارد في آيات السورة هي:

1 – قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

2 – قوله تعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾.

3 – قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾.

هذه الآيات التي وردت ضمن سورة المائدة دلَّت بوضوح على موضوع الإمامة، وفصَّلت الخطاب في أهمِّيتها، وأكَّدت اهتمام الشارع المقدس بتشريعات الإمامة وإلزام النبيِّ ببيانها وتعريفها موضوعًا ومصداقًا، لئلا يكون للناس حجة على الله بعد الرُّسل، وتبليغهم بأوامر الله تعالى، وضرورة اتباعه بوصف الإمامة رئاسة ربَّانية يجعلها الله تعالى فيمن يشاء من عباده، وهذا شأن الله تعالى فيما أوجبه على نفسه بقصد ضمان مسيرة الإصلاح بين الخلق أجمعين، وقد بلَّغ الرسول (صلى الله عليه وآله) بما أمره سبحانه وتعالى على الرغم من ظهور الإعراض من بعض الناس كما يتضح من سياق الخطاب.

لذا يجتهد البحث في قراءة الآيات الثلاثة قراءة تداولية في مبحثين للوقوف على أثر النظريات اللسانية في الكشف عن الأبعاد الخطابية في الموروث الخطابي الإسلامي الذي تلخص في الآيات الواردة في موضوعة الإمامة.

أولاً: الأبعاد الدلالية لآيات الإمامة:

في قراءة دلالية لآيات الإمامة في سورة المائدة يمكن الوقوف على جوانب عدَّة تتناسب مع ماهية الخطاب وتتماهى مع أهمِّية الحدث، ففي الآية الأولى نجد أنَّ المقطع الذي جاء في موضوع الإمامة اتسم بموضوعية عالية يلخص ضرورة الالتزام بالأمر الالهي في توجيه الخطاب؛ إذ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾. وفُهم من الخطاب الذي توافرت الروايات على أنّه نزل في يوم غدير غم (المفيد، 1993، 1/ 13) (الدينوري، 1994: 1/ 90)، (الطبري، 1413هـ، 1/ 101)، وفيها أعلن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) (الطبري، 1413هـ: 1/ 101)، (ابن طاووس، 1413هـ: 1/ 11)، ويتضح من المقام أنَّ المراد بـ(اليوم) هو يوم الغدير الذي عمَّ فيه التبليغ بالولاية بشكل قطعي، وصار المسلمون يبايعون ويباركون لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية؛ إذ اشتهر يومها قولهم ((بخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)) (الدينوري، 1994: 1/ 103)، (الطوسي، 1964: 2/ 36)، وفي قراءة الخطاب نجد أنَّ ترادف المصطلحات جاءت لخصوصية الموضوع؛ إذ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فالتمام في قبال الكمال، والتمام يكون ضد النقص، وفيه إشارة إلى أنَّ الدين ناقص لولا هذا الأمر، وفُهم من ذلك أنَّ أمر الدين لا يمكن تجزئته، ويكتمل بالإمامة، ومن دون الإمامة فإنَّ الدين يوصف بالنقص؛ لذلك يتوجب على المسلم أنْ يتمسك بالإمامة ليكتمل دينه.

أمَّا التمام الذي جاء قرينًا للنعمة فهو يمثل الحالة المثالية، ووصف النِّعم بالكمال في حال اجتماعها بالولاية تأكيد بأنَّ النِّعَمَ وإنْ تعددت إلى حدٍّ لا يمكن إحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾، إلا أنَّها لا تتمُّ إلا بالولاية التي تزدان بها النعم على الرغم من أنَّ النعم تتعدَّد، وبذلك تختلف عن الدين الذي وُسم بأنَّه

واحد بكل مـــا يتعلق به ولا يمكن تجزئته وتعدد مصاديقـــه، وأكَّد الخطاب القرآني أنَّ مع كمال الدين وتمام النعمة يتقبل الله الإســـلام، والكمال والتمام يكون في الايمان بالولاية؛ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾.

أما دلالة الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُون﴾، فالذي يظهر من الخطاب اهتمام الله تعالى بضرورة وجود مرجعية للمؤمنين بعد الله سبحانه وتعالى وبعد رسوله (صلى الله عليه وآله)، ومؤشر الخطاب ينبئُ بدنوِ أجل الرســـول (صلى الله عليـــه وآله) وضرورة وجود من يمكن الرجـــوع إليه بعده (صلى الله عليه وآله)، وبالنظر إلى ســـياق الخطاب يتبيَّن أنَّ الأمر مخصوص بمَنْ يصدق عليه عنوان الولي الذي يكون متسيّدًا على الناس جميعهم وله حق تقرير مصيرهم فهو أقرب إليهم من أنفســـهم، وحدَّد القرآن في خطابه صفاتٍ يتمتـــع بها ذلك الـــولي، وهذه الصفات مجتمعـــة لا تثبت إلا لأمـــير المؤمنين (عليه السلام)؛ إذ أجمعت النقول على أنَّه كان في المسجد ساعة دخول الفقير، وقدَّم للفقير خاتمه وهو على الصـــلاة متقرِّبًا بالزكاة، وهو بذلك ينتقل بـــين ألوان الطاعات من الصلوات والزكوات ولا يخدش ذلك بصحة الفرائض ولا ينقص من الخشوع فهو لم يخرج عن الطاعـــة وصورها المتعدِّدة؛ لذلك لم يختلـــف مصادرنا عن كونه (عليه السلام) كان مصداقًا للخطاب، قال الطوسي (ت460 هـ): ((ووجه الدلالة فيها أنّه قد ثبت أنّ الولي في الآية بمعنى الأولى والأحقـ وثبت أيضًا أنّ المعني بقوله «والذين آمنوا » أمير المؤمنين (عليه السلام) فإذا ثبت هذان الأصلان دلّ على إمامته، لأنّ كلَّ مَن قال: إنّ معنى الولي في الآية ما ذكرناه قال إنّها خاصة فيه)) (الطوسي، 3/ 557)، وشايعه في هذا التفســـير عددٌ غير قليل من المفسرين؛ (الطبرسي، 2006: 321/ 3)، (الحويزي، 1383هـ:2/ 60)، (الكاشـــاني، 1416هـــ: 146/ 1)، وهذه التصريحات التي بلغت حدَّ التواتر أكَّدت أنَّ أمر الولاية شـــأنٌ إلهي ورئاســـة ربانية لا يصلح لها

عامَّة النـــاس؛ لذلك يجعلها الله تعالى في صفوة عباده ممـــن اختبرهم فوجدهم أهلًا للأمانة ورعايتها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾، وهذا يدلُّ على أهمية الولاية بوصفها من أركان الدين التي ينبغي رعايتها من جهة من يستحقها فلا يمكن تصوُّرها في الجميع.

وبالنظـــر إلى وظيفة العامل (أداة الحصر) المتصدِّر للخطاب القرآني في آية الولاية فإنَّه يمكن القول بأنَّ أمر الولاية وتخصيصها يكون من عند الله تعالى، وليس للناس إرادة في تولية هذا الأمر، وهذا يؤكد أهميَّة وظيفة الإمام وأثره في التصدي بعد النبيِّ (صلى الله عليه وآله)، ويدعو إلى قراءة مفهـــوم الإمامة قراءة موضوعية بقصد فهم هذه المســـؤولية الكبيرة التي أنـــاط الله بها مرجعية العباد وتقرير شـــؤونهم وتقدير مصالحهم للدنيا والآخرة كما الرسول (صلى الله عليه وآله)، وهذه المسؤوليات التي يُكلَّـــف بها الإمام تزيده مقامًا ووجاهة عند الله تعالى؛ لذلك لا نســـتغرب المقامات الجليلة التي خصَّ الله بها عليًا (عليه الســـلام) في القرآن الكريم والروايات الشريفة التي تأكَّد صدورها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وأمَّا عن ورود الخطاب بصيغة الجمع ﴿الَّـذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ فقد زَخَـــرَت كتب الأدب العربي بجمل عُبِّر فيها عن المفرد بصيغة الجمع، وقد اشـــتمل القرآن الكريم على مثل هـــذه الجمل، كما في آية المباهلة؛ إذ وردت كلمة (نســـاءنا) بصيغة الجمع مع أنّ الرّوايات التي ذكرت سبب نزول هذه الآية أكّدت أن المراد من هذه الكلمة هي فاطمة الزهراء (عليها الســـلام) وحدها، وكذلك في كلمة (أنفسنا) في الآية نفســـها وهي صيغة جمع، في حين لم يحضر من الرجـــال في واقعة المباهلة مع النّبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) غير علي (عليه الســـلام) (الشيرازي، 1426هـ، 4/ 50).

أمَّا دلالة الآية الثالثة: ﴿يـا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما

بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾. فالظاهر من الخطاب أنَّ هناك أمرًا عظيمًا توجَّب على الرسول (صلى الله عليه وآله) التصريح به، وكان عالِما بأنَّ هناك ردودًا غير إيجابية من القوم الذين كرهوا اجتماع النبوَّة والإمامة في بني هاشم (الريشهري، 1425، ينظر: 54/ 4)؛ لذلك فإنّ سياق الخطاب يوحي بأنَّ الله تعالى أراد بهذه اللغة التصريحية القويَّة رفع الحرج عن رسوله (صلى الله عليه وآله)، وجعل أمر قبول الرسالة التي كان عمرها آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا متوقفة على هذا التبليغ؛ بل إنَّ الله تعالى لا يقبل إسلامهم دون هذا الأمر.

وبالنظر إلى أهميَّة الموضوع رُدَّت الروايات التي حاولت الالتفاف عن الموضوع باختلاق موضوعات جانبية جعلوها هي الأساس في هذا التبليغ كالذين ذهبوا إلى الأمر بالصلاة أو الزكاة أو حرمة الدماء أو غير ذلك من المسائل الجزئية التي سلط الإسلام عليها أوامره في بداية الدعوة الإسلامية، وهذه المحاولة في إبعاد المناسبة عن موضوعها لم تكن بدعًا من القوم؛ بل هي ضمن سلسلة محاولات بائسة سعى إليها القوم آنذاك من أجل تحجيم أمر العترة الطاهرة (عليهم السلام) وإبعادهم عن الاستحقاقات التي جعلها الله لهم.

وبالنظر إلى سياق الخطاب أيضًا نلحظ اهتمام الرسول (صلى الله عليه وآله) بإيصال التبليغ وحرصه على التفاعل الايجابي من القوم تجاه الأمر؛ لذلك توَّج التبليغ بمقدِّمات عدَّة ليحصل على المقبولية من المسلمين حيال التبليغ، وقضى الله أنْ استجاب المسلمون؛ إذ سُمع من كبار الصحابة تهنئتهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمرة والولاية فقال عمر بن الخطاب: ((بخٍ بخٍ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)) (الدينوري، 1994: 1/ 103) (الطوسي، 1964، ينظر: 2/ 36)، (الآملي الكبير، 1415، 1/ 301)، وأصبحت ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) أمرًا أساسيًا لا يقبل دين الأمة من دونه، وتعهَّد الله تعالى لنبيِّه (صلى الله

عليه وآله) بالعصمة مِن أذاهم الذي ظهر بشـــكل جلي بعد رجوعهم إلى المدينة؛ إذ كَثُرت الأحداث والعوارض بعد شيوع خبر التبليغ، واعترض بعضهم كالنعمان بن الحـــارث الفهري (النعماني، 1397هـ، ينظـــر: 1/ 262)، (الطبري، 1413هـ، 1/ 5)، (الأصفهاني، 56/ 37) الذي تنزل فيه قوله تعالى: «سَأَلَ سائِلٌ بِعذابٍ واقِعٍ للكافِرِينَ ليس له دافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي المعارج».

وفي ذيل الخطاب تلويـــح إلهي بأنَّ عدم قبول هذا التبليـــغ يتعارض مع الهداية، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ»، وبهذا فإن إســـلامهم من دون ولاية أمير المؤمنين لا قيمة له، وبذلك أوجب سبحانه وتعالى إمامة أهل البيت (عليهم السلام) بوصفها من الدين.

ثانياً: أسباب نزول الآيات:

تعدَّدت الروايات التي وردت في المصادر والمراجع بخصوص نزول آيات الإمامة في سورة المائدة، واتفقت عموم الروايات على أصل الموضوع مع تباينها في التفصيل والإيجاز ومن أهمِّ هذه الروايات:

أولا: أسباب نزول آية كمال الدين وتمام النعمة، قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾، نقل الرواة أحاديث كثيرة بلغت حدَّ الشهرة في بيان أسباب نزول هذا الخطاب القرآني، من ذلك ما ذكره الطوسي من أنَّ الآية نزلت بعد آية التبليغ بالولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام)؛ إذ جعل سبحانه وتعالى كمال دينه وتمام نعمته في ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: ((روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما الســـلام) أنَّ الآية نزلت بعـــد أن نصب النبي (صلى الله عليه وآله) عليًا (عليه الســـلام) علمًا للأمة يوم غدير خم بعد منصرفه عن حجة الوداع، فانزل الله يومئذ ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ (الطوسي، 433/ 3)، (الطبرسي، 2006، ينظـــر: 3/ 244)، (الحويزي، 1383هـ: 2/ 155)، ونزول الآية بعد التنصيب

بالإمامــة يختصر الجهد على الباحثين في توجيه الخطاب إلى مســتقره وإن بالغ بعض المتعصبين في توجيــه الروايات المصطنعة لإبعاد الأمر عن مضانه والتشــويش على الناس الذين واجهوا مختلف الروايات البعيدة والقريبة ضمن هذا السياق.

أمَّا ســبب نزول الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾. فقد شــاع بين المصادر والمراجع اختصاصها ببيــان الولاية والدعوة إليها؛ إذ أكَّد الطــوسي أنَّها نزلت في عليٍ (عليه السلام) بلا خلاف فقال: ((بلا خلاف اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه، فروى أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القــرآن على ما حكاه المغربي عنه، والطبري، والرماني، ومجاهد، والســدي: إنّها نزلت في علي (عليه السلام) حين تصدق بخاتمه وهو راكع، وهو قول أبي جعفر أبي عبدالله (عليه الســلام) وجميع علماء أهل البيت)) (الطوسي، 3/ 557)، (الكاشــاني، 1416هـ)، (الشــيرازي، 1416هـ، 4/ 46)، ويظهر مما تقدَّم أنَّ إجماعهم واضح في إثبات موضوع الخطاب وســبب نزوله وهذا الإجماع يدحض أقوال المرجفين الذين حاولوا توجيه دلالات الخطاب إلى معانٍ غير مناســبة لا من جهة الموضوع ولا مــن جهة مصاديقها، ومن هنا فإنَّ الآية تكشــف عن تخصيص الإمامة في أمير المؤمنين (عليه السلام).

وأمَّا عن سبب نزول الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾. فهناك نُقولٌ بلغت حدَّ التواتر في أنَّ الخطاب نزل في دعوة الناس إلى ولاية أمير المؤمنين (عليه الســلام)، ومما جاء في مصادر المسلمين ما ذكر العياشي وشايعه من بعد كثير من الــرواة والمفسرين؛ إذ قال: ((عن أبي جعفر (عليه الســلام) قال: لما نزل جبرئيل (عليه السلام) على رســول الله (صلى الله عليه واله وسلم) في حجة الوداع بإعلان أمر علي بن أبي طالب (عليه الســلام) «يا أيها الرســول بلغ ما انزل

اليك من ربك» إلى آخر الآية، قال: فمكث النبي (صلى الله عليه واله) ثلاثا حتى أتى الجحفــة فلم يأخذ بيده فرقًا من الناس، فلما نزل الجحفة يوم الغدير في مكان يقال له مهيعة، فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فقال النبي (صلى الله عليه واله): من أولى بكم من أنفسكم؟ قال: فجهروا فقالوا: الله ورسوله، ثم قال لهم الثانية، فقالوا: الله ورســوله، ثم قال لهم الثالثة، فقالوا: الله ورسوله، فأخذ بيد علي (عليه السلام) فقــال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهــم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، فإنّه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موســى إلا أنه لا نبيَّ بعدي+)) (العياشي، 1422هـ: 1/ 353)، (الكوفي، 1990: ينظر: 8/ 16)، (القمي، ينظر: 9/ 13)، (الطباطبائي، 1997: 6/ 29)، (الشيرازي، 1426هـ، ينظر: 4/ 82).

ويظهر من الرواية أنَّ هناك توظيفًا سماويًا من الله سبحانه وتعالى بأشرف خطابٍ في توجيه الإمامة بوصفها سفينة النجاة في ظل البحار المتلاطمة والمختلفة فيما بينها، ولاسيَّما أنَّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قد شارف على الرحيل بعد أنَّ أتمَّ الحجة على قومه في واقعة الغدير الأغر، وممَّا جاء في الخبر أعلاه يثبت عدم مشروعية التحالفات والتخدقات التي اصطف إليها بعض المســلمين بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقصــد إبعاد الإمامة عن أهلها، وتحديد اتجاه الإمامة من الله ورســوله والدعوة إلى الانتصار لها بوصفها ولاية المؤمنين والمؤمنات الذين يشهدون لله بالوحدانية ولنبيٍّ بالرسالة وللإمام بالولاية.

المبحث الثاني: متضمنات القول في آيات الإمامة في سورة المائدة

متضمنات القول مفهوم تداولي أقرب إلى الإجراء يقوم برصد الظواهر في الخطاب، وتعنى هذه المرحلة بدراسة الدلالات الضمنية للأقوال على وفق الإشاريات ضمن المســتوى الثاني، وذلك بتجــاوز المعاني الحرفية، إذ تنتقل دلالة الملفوظ من ســياق

الموضع إلى سياق الحدس عند المتلقي؛ لرفع الغموض في العبارات والجمل حتى من دون وجود الإشاريات؛ لأنها تعتمد على السياق فتنتقل من المستوى السطحي إلى المستوى التلميحي، وتقوم على أساس الافتراض المسبق والأقوال المضمرة والحجاج، وسوف نترك الحجاج؛ ونكتفي بالإشارة إلى الافتراض المسبق والأقوال المضمرة على وفق حاجة هذه الدراسة.

أولا: الافتراض المسبق

يُعدُّ الافتراض المسبق من المفاهيم الأساسية في العملية التداوليَّة، فهو يمثل جملة من المعلومات التي لم يفصح عنها المتكلم؛ بل يوردها بطريقة آلية؛ لذلك ذكروا أنَّ الافتراض المسبق هو افتراضات المتكلم قبل التفوه بالكلام، ومن هنا ذهب أكثر علماء اللغة إلى أنَّ الافتراض المسبق يقوم أساسًا على منتج الخطاب، على حين ذهب (بيرلمان) إلى أنَّ المتلقي هو صاحب الأثر الأهم في مسألة الافتراض المسبق؛ بوصفه مستقبل الخطاب ونتيجته، وذهب آخرون إلى الجمع بين مجموع الرأيين، وبهذا يمكن القول إنَّه لا يمكن لأيِّ خطاب الاستغناء عن الافتراض المسبق (حمو الحاج، ينظر: 136).

والافتراض المسبق يقوم على الشرح والتفسير والتحليل، وتشكِّل المعرفة المشتركة بين المتخاطبين جانبًا مهمًّا في إنتاج الخطاب؛ لأنَّها تمثل القاعدة التي يستند إليها طرفا الخطاب في التواصل، فينطلق المنتج من العناصر السياقية التي بحوزته لإنتاج الخطاب، ويعتمد المتلقي عليها في تأويله؛ ليتمكن من فهم الخطاب (يول، 1997: 37)، ويشكل الافتراض السابق العمق البنائي لإنجاح العمليّة التواصليَّة؛ إذ ينطلق أطراف الخطاب في أثناء حواراتهم من معطيات وافتراضات تكون مشتركة ومعلومة بينهما، ولا يصرحون بها؛ بل تكون متضمنة في أقوالهم (بحياتن، 2017)، وعليه يقوم المتكلم بتوجيه الخطاب إلى المتلقي مفترضًا أنَّ جوانب الخطاب معلومة بالضرورة لديه.

ولمَّا كان النص القرآني متوجهًا إلى الناس ليدبَّروا آياته – كلٌ بحسبه – انطلق من مبدأ الافتراض المسبق في كثيرٍ من مواضعه؛ إذ عمد إلى الحذف مثلًا اعتمادًا على علم المخاطب، وقدَّر الكلام المحذوف معتمدًا على السياق على وفق معطيات التداولية_ يلاحظ الافتراض المسبق كما الأقوال المضمرة في الآيات القرآنية بلحاظ القارئ الثاني أو المنتج الثاني، لأنَّه لا يصح عقائديًا تضمين خطابات الله تعالى هذه الافتراضات_ وبالرجوع إلى تحليلات تفسير آيات الإمامة في سورة المائدة نجد أنَّ هناك مساحة غير قليلة للافتراض المسبق ظاهرة عبر التعليلات والتحليلات والتفسير، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾، أضمر الخطاب مجموعة من المحذوفات التي فهمها المتلقي بحسب المشتركات بين المتكلم والمتلقي، ففي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ إشارة إلى اليوم الذي يئس فيه الكفار وانتصر فيه المسلمون، قال العلامة الطباطبائي (1402هـ) ((أريد به يوم واحد يئس فيه الكفار و أكمل فيه الدين)) (الطباطبائي، 1997: 5/ 98)، وهذا الخطاب أضمر أيضًا المخاطبين وهم المسلمون الذين تواجدوا في واقعة غدير خم، وكان هذا الأمر واضحًا عندهم بوصفهم مخاطَبين؛ وفهم المقصود من هذا الملفوظ عند المتلقي باعتبار الثقافة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، وقوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، أنتج عدَّة أسئلة تداولية ومنها: ما هو الشيء الذي قد أكمل الله به الدين وأنعم به عليهم؟، ومتى أنعم عليهم، وعلى من أنعم سبحانه وتعالى؟ وقد بيَّن السيد الطباطبائي هذه الأجوبة بقوله بنقله رواية عن الرواة جاء فيها: ((عن أبي سعيد الخدري: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم دعا الناس إلى غدير خم أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم، و ذلك يوم الخميس يوم دعا الناس إلى علي و أخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس إلى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى

نزلت هذه الآية: «اليوم أكملت لكم دينكم – و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا» فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة ورضا الرب برسالتي و الولاية لعلي)) (الطباطبائي، 1997: 5/ 111)، واستند الخطاب القرآني إلى علم المسلمين المسبق؛ فهم كانوا يعلمون بأنّ الله تعالى قد خصَّهم فيما مضى بنعم كثيرة سابقة في طريق وجهتهم إلى الله تعالى بعد أنْ أسلموا، والخطاب لم يتوقف عند هذا الحدِّ؛ بل افترض أيضًا سلسلة من الثوابت التي تكون سببًا لرضى الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾؛ إذ يتضح من الخطاب أنّه أضمر النقص في دينهم الذي اكتمل بمجموعة مما يكتمل به الإسلام، ووجَّه الخطاب إلى ضرورة الالتزام بما أوجبه سبحانه وتعالى مما يكون سببًا لإكمال الدين وتمام النعمة، فلو أخلَّ الانسان بها كان عرضة لمكر الله تعالى.

وأمَّا الافتراض المسبق في الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾، فقد يتضح في ملاحظة مجموعة من الأسئلة التي شكَّلها الخطاب من قبيل أنّهم كانوا يعتقدون بالإسلام كدين ويلتزمون ضوابطه ويأخذون بأحكامه التي توجبها الآيات القرآنية أو التي يعلنها الرسول (صلى الله عليه وآله) بوصفه مبعوثًا من عند الله تعالى، وقد ثبت عندهم صدق دعوته واتصاله بالسماء، لذلك فالخطاب يفترض أنَّهم يلتزمون بالتوجيهات التي تصدر عن الله تعالى، ومن ذلك الاعتقاد بولاية الذين آمنوا؛ لأنَّ ولايتهم مقرونة بولاية الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) كما في نص الخطاب القرآني، وبهذا وجب عليهم الولاية لعلي (عليه السلام) بوصفه أميرًا للمؤمنين ومصداقًا للخطاب القرآني في هذا المورد (الطوسي، 3/ 755)، (الكاشاني، 1416هـ، ينظر: 2/ 47)، (الشيرازي، 1416هـ، 4/ 46)، واستبطن الخطاب بعض المسلمات من

عقيدة المسلمين كوجوب الصلاة والزكاة وبيان بعض أفعال الصلاة كالركوع الذي تماهى عليه المسلمون في فعل الصلاة.

وأمَّا ما جاء في باب الافتراض المسبق في الآية الثالثة من آيات الولاية في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾. ففي الخطاب افتراضات عدَّة ومن أهمها ما يظهر بشكل جليٍّ أنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وآله) كان يتنزَّلُ عليه البلاغ بين الحين والآخر وقد ألف الناس منه ذلك، وكان يبلغ الناس تبشيرًا أو انذارًا أو بيانًا للأحكام التي يأمر بها الله تعالى، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وافترض الخطاب أيضًا أنَّ مرجعيَّة التبليغ والأوامر ليس من النبيِّ (صلى الله عليه وآله)؛ بل من الله تعالى؛ لذلك فلا يمكن التساهل في الأمر أو تركها مهما كان كبيرًا على الناس أو عظيما في أنفسهم، وافترض الخطاب بعدًا كبيرًا في أمر الرسالة وقبولها؛ وكأنه يؤكد أنَّ الناس مفترض عليهم السمع والطاعة وليس لهم مناقشة أو ردِّ التبليغ وإلا فلا يقبل منهم إسلامهم الذي يزعمون به الانقياد والاستسلام لله تعالى، ومن هنا فإنَّ المسلم ينبغي عليه عدم التعامل مع الأوامر والنواهي بالعواطف التي ثبت قصورها في تلبية دعوة السماء على وفق الإرادة الالهية التي أكَّدتها النواميس السماوية وصرَّح بها الأنبياء والمرسلين، وافترض الخطاب أيضًا وجود الكافرين الذين زاغوا عن الهداية والدين واستحقوا العذاب الاليم.

ثانيًا: الأقوال المضمرة:

يعدُّ القول المضمر المرتكز الثاني الذي يستند إليه متضمنات القول بعد الافتراض المسبق، وهو يختلف عن الافتراض المسبق بوصفه كتلة المعلومات التي يمكن

للخطاب أن يتضمَّنها، ويكون الوصول إلى دلالاتها عبر المعطيات اللغوية، وتكون غير ظاهرة عادة، ويمكن كشفها من سياق التأويل (صحراوي، 2005، ينظر: 30)، ومن هنا فإنّه لا يمكن الاكتفاء بالمعـــاني المعجمية أو الصريحة للألفاظ؛ لأنَّها تؤدي إلى فهم قاصر غير مقصود، وهذا يلزم على المخاطب أنْ ينتقل من المعاني المباشرة إلى المعاني غير المباشرة للألفاظ – المعاني الضمنية – وهذا يعني أنَّ القول المضمر لا يظهر على سطح الملفوظ؛ بل يكون مســـتورًا باللفظ ويكشفه السياق، ويتحمل المتلقي في باب الأقوال المضمرة مســـؤولية تحليل النَّص والوصـــول إلى مقاصد المتكلم، وهذا يستلزم كفاية تداولية ومرجعية ثقافية لفهم الخطاب.

ومـــن هنا فإنّ المفهوم الظاهر للأقوال المضمرة لا يتناســـب مع غرض الخطاب القرآني الذي جاء هاديًا ومنيرًا، وقد أمر الله تعالى المسلمين بتدبُّر آياته؛ إذ قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾. فالقرآن كتاب سماوي أنزله الله تعالى بقصد الهداية، وهذا يستلزم وضوحه؛ ولكن يمكن أنْ يلاحظ موضوع الأقوال المضمرة بالنســـبة إلى القارئ بوصفه منتج الخطاب ومتلقيه بوصفه متلقي الخطاب ولاســـيَّما أنَّ الدلالات الضمنية ثابتة في القرآن الكريم بالنســـبة إلى متلقيه، وهذا يفسِّر اختلاف المفسرين في توجيههم لدلالة النصوص القرآنية؛ لذلك سنعمد في هذه الدراسة إلى قراءة الخطاب القرآني والكشف عن الأقوال المضمرة فيه بلحاظ المنتج الثاني ومتلقيه.

وبالرجـــوع إلى آيات الإمامة في ســـورة المائـــدة التي حدَّدنـــا للبحث في هذه الدراســـة نجد أنَّها توافرت على كتلة من المعلومات غير المباشرة التي لم تظهر على ســـطح الملفوظات، ففي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا﴾، تأكيد واضح بأنَّ الدين ناقص من دون الأمر الذي نزل

في اليوم الذي نــزل فيه الخطاب – يوم الغدير – والفعــل (أكملت) دلَّ بوضوح على ذلك، وهذا يؤكِّد أهمِّية البلاغ الأخير الذين لولاه لاســتمر الدين ناقصًا، قال الطوسي: ((إنّ معناه أكملت لكم فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي، بتنزيلي ما أنزلــت وبياني ما بينــت لكم، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنســخ بعد هذا اليــوم)) (الطوسي، 433/ 3)، (الطــبرسي، 2006، ينظــر: 3/ 233)، فالفرائض والحــدود والحلال والحرام كلهــا اكتمل بالولاية التي جــاءت في هذا التبليغ كما أكَّدت الروايات (العياشي، 1422هـــ، 353/ 1)، (الكوفي، 1990، ينظر: 16/ 8)، (القمي، ينظر: 13/ 9)، (الطباطبائي، 1997، ينظر: 6/ 29) (الشيرازي، 1426هـ، ينظــر: 4/ 82)، وأمَّا الفعل (أتممت) فهو الآخر بيَّن أنَّ جميع النعم الســابقة لهذه النعمة كانت غير تامَّة مع أنَّها كانت ســابقة لها ومحيطة بالناس، ولمَّا أتمَّ الله عليهم نعمة الولاية أكَّد أنَّه بهذا النعمة تمَّتِ النعــم الالهية، قال العياشي: ((وإنَّما اكملت الفرائض بالولاية لانَّ النبي)) (صلى الله عليه وآله) أنهى جميع ما اســتودعه الله من العلــم إلى علي (صلوات الله عليه) ثُمّ إلى ذريته الأوصيــاء واحدًا بعد واحد، فلما أقامهم مقامه وتمكن الناس من الرجوع اليهم في حلالهم وحرامهم واســتمر ذلك بقيام واحد به بعد واحد كمل الدين وتمت النعمة والحمد لله، وقد ورد هذا المعنى بعينه عنهم (عليهم الســلام))) (العياشي، 1422هـــ: 1/ 311)، وفي قول العياشي بيان واضح على أنَّ كمال الدين وتمام النعمة يكون بولايتهم (عليهم السلام)، ومن ثَمَّ خُتمت الآية برضى الله تعالى بعد التبليغ بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْـلامَ دِينًا﴾، وهذا يؤكَّد أنَّ الرضا التام لله ســبحانه وتعالى لا يتمّ إلا بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام).

وأمّــا الاقوال المضمرة في الآية الثانية وهي قولــه تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾، فهي متضمنة في الخطاب

عــلى وفق المعلومات التي جــاءت في طياته، ومن ذلك حــصر الولاية في الله تعالى ورســوله والذين آمنوا_ أمير المؤمنين (عليه الســلام) (الكاشاني، ينظر: 3/ 557)، ومن هنا فإنّ الولاية التي جاءت بمعنى الإمامة (الكاشاني، ينظر: 3/ 557) في بعض دلالاتهــا قد أفادت أنَّ الإمامة خاصة في أمير المؤمنين (عليه الســلام)، ومن جانب آخر تبيَّن من الخطاب أنَّ إخراج الزكاة بوصفها من الواجبات في أثناء إقامة الصلاة لا تضرُّ بالمــولاة (الحويزي، 1383هـ، 2/ 218) التي تُعــدُّ من الواجبات في الصلاة (الطباطبائي، 1984، ينظر: 9/ 483)، وبالنظر إلى ما ورد في الخطاب يمكن أنْ نتصور اهتمام المســلمين بالظواهر الاجتماعية التي تعمل على التوازن بين المسلمين وتعمل على قضاء حوائجهم وهم متلبســون بالواجبات الكبيرة كمثــل فعل أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يصلي جماعة خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهذا يؤكِّد البعد الإنساني في الدين الإسلامي الذي جاء لخدمة الفرد وتنظيم المجتمع على وفق رعاية المصالح الخاصة والعامَّة.

وأمَّا الاقوال المضمرة في الآية الثالثة: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾. فهي متوافرة من جهات عدَّة، وأهمُّها أنَّ الرسالة في قبولها من عندِ الله تعالى مشروطة بالتبليغ الأخير وإلا فإنَّ الرســالة التي كانت عُمُرهــا أكثر من عقدين من الزمن بما فيها من الخطابات القرآنية كلها غير مستوفية؛ لذلك وجدنا حرصًا كبيرًا من الرسولِ (صلى الله عليه وآله) على تبلغ الأمر على الرغم من المواجهات الضمنية والتصريحية التي كشــفها قوله تعالى في ذيل الخطاب: (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)، قال الطوسي: ((وقوله «والله يعصمك من الناس» معناه يمنعك أن ينالوك بسوء من فعل أوشر أو قهر. وأصله عصام القربة، وهو وكاؤها الذي يشد به من سير أو خيط)) (الطوسي، 3/ 586)، (الكاشــاني، 1416هـ: 2/ 57)، ويظهر من ســياق الخطاب أيضًا ترجيح

الاسراع بالتبليغ وإنْ لم يكن التأخير ممنوعًا (الشـيرازي، 1416هـ، ينظر: 6/ 483)، وهذا يؤكد حرص الرسالة والرسـول على تنظيم شؤون العباد والبلاد قبل مغادرة الدنيا، ومن جانب آخر يكشـف عن أهميَّة هذا التبليغ بالنسـبة إلى المسلمين الذين كانوا وسط تحدِّيات جسام.

النتائج

بعد رحلةٍ بحثيَّة معرفيةٍ ليست بالقصيرةِ بين مختلف المصادر والمراجع والاطلاع عـلى القراءات والتصورات التي كانت مادة البحـث للوصول إلى مكنون الخطاب القرآني الذي تميّز به موضوع الإمامة ومفاتشة التفاسير عبر مختلف العصور، توصل البحث إلى عدَّة نقـاط يمكن أنْ تكون نتائج لهذا الجهـد العلمي، وهي على النحو الآتي:

1 – الإمامة مفهوم قرآني مختص بالدلالـة على الولاية في آيات الولاية وهي من مختصـات آل محمد (صـلى الله عليه وآله) دون غيرهم مـن الناس بوصفهم (عليهم السـلام) ممن اختصهم الله تعالى للرئاسة على الناس بعد النبيِّ (صلى الله عليه وآله).

2 – الله تعالى هـو الحامي والمدافع الأول عن الإمامة، وقـد وعد نبيَّه المصطفى (صلى الله عليه وآله) بالنصرة على أعداء الدين والولاية.

3 – اتفقت الخطابات القرآنية في الكشـف عـن الإمامة عبر مجموعة من الآيات القرآنية التي تتكامل مع بعضها لرسـم معالم الولاية التي تنطلق من إمامتهم (عليهم السلام) على وفق النصوص والنقول المعتبرة.

4 – لم تكن السـاحة الإسـلامية على قـدر كافٍ من الوعي لاسـتقبال الأوامر والنواهي بشـكل طوعي وبقلب مسـتبشر؛ لذلك كان هنـاك اعتراضات

واســتهدافات بلغت حدَّ التصدي للنبيّ (صلى الله عليه وآله) من أجل منعه من التبليغ بالإمامة لأهل البيت (عليهم السلام).

5 – النظريات اللســانية الحديثة التي واكبت الحراك اللغوي في تطوُّره أسهمت بشــكل أو بآخر في تحليل الخطاب القرآني بما لا يتعــارض مع المبادئ العامّة للمقدَّسات الإسلامية والضوابط العربية بعد توجيهها بالشكل الذي ينسجم مع المبنى المعرفي للعرب المسلمين.

6 – بدأ العرب بتثوير حقل الدراســات اللســانية في الأبواب والمنافذ المختلفة ولاســيَّما أنَّ بعض الدارســين الغربيين نقلوا فكرة هذه الدراسات على وفق الموروث اللغوي العربي الذي يمثِّل مرتكزًا معرفيًّا للمدارس عمومًا.

7 – أظهر البحث أنّ في نصوص المفسرين المتعلقة بآيات الإمامة ما يكشــف عن بيان الافتراضات المسبقة في الخطاب القرآني وأثرها في تحليل النصوص، وهذا يؤكِّد امكانيتهم التداولية في فك رموز الخطاب وقدرة مرجعياته الثقافية التي يتمتع بها في التواصل بين أطراف الخطاب.

8 – الابعاد التداوليّة كانت حاضرة في تحليلات المفسرين بمراحلها المختلفة، وقد استأنسوا باســتحضار المقام التواصلي في النظر إلى الظواهر اللغوية للوصول إلى مقاصد المتكلم.

وبهذه النتائج المعرفية العلمية نختم بحثنــا الذي حاولنا فيه بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى أنْ نتوصل إلى الإجابة عن التساؤلات والإشكاليات التي ذُكرت في البحث، ونرجو أنْ تكون هذه الدراســة فاتحة خير لدراســات أخرى غرضها إثراء هذا الموضوع من مختلف الجوانب ولا سيّما اللغوية منها، ونوصي بضرورة تخصيص جزء من جهود الباحثين في جمع شــتات آثار أهل البيت (عليهم الســلام) العلمية

والمعرفية والروائية في مختلف التفاسير؛ لأنّ في متابعة مروياتهم وتأصيلها إثبات لحقهم التاريخي في مرجعيَّة المعارف والعلوم المختلفة، وفي الختام يمكن القول إنَّ الجهد قليلٌ من كثير يتعلق بالإمامة موضوعًا ومصداقًا واستحقاقًا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين المعصومين.

مكتبة البحث:

- **القرآن الكريم.**
- الآملي الكبير، محمد بن جرير بن رستم الطبري (326 هـ). المسترشد في إمامة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، الطبري، كوشانپور. إيران؛ قم. ط1. 1415 هـ.
- ابن طاووس، علي بن موسى (664 هـ). التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين. مؤسسة دار الكتاب. مكان الطبع: إيران. قم، ط1، 1413 هـ.
- الأزهري. محمد بن أحمد بن الهروي، أبو منصور (ت 370هـ). تهذيب اللغة. تح: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 2001م.
- الأصفهاني، أبو الفرج (356هـ). مقاتل الطالبين. أبو الفرج الاصفهانيدار احياء الكتب العربية، القاهرة. د ط. د ت.
- بحياتن، محمد. مدخل إلى اللسانيات التداوليّة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. د. ط. 2017م.
- حمو الحاج، ذهبية. لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب. دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. د. ط. د. ت.
- الحويزي، عبد علي العروسي (1112هـ). نور الثقلين. تحقيق علي بن عاشور. المطبعة العلمية. قم المقدسة. 1383هـ.
- الدينوري، شهدة بنت أحمد بن الفرج. العمدة من الفوائد والآثار الصحاح والغرائب في مشيخة شهدة، تحقيق د. رفعت فوزي عبدالمطلب. مكتبة الخانجي – القاهرة. ط1. 1994.
- الريشهري، محمد. موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب و السنة والتاريخ. تح: مركز بحوث دار الحديث وبمساعدة: السيد محمد كاظم الطباطبائي. السيد محمود الطباطبائي نزاد. دار الحديث للطباعة والنشر. ط2. 1425هـ.
- الشيرازي، ناصر مكارم. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت. لبنان. ط1. 1426هـ.
- صحراوي، محمود. التداولية عند علماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. دار الطليعة. بيروت، ط1. 2005 م.

- الطباطبائي، العلاّمة محمد حسين (1981م). الميزان في تفسير القرآن. ط1. صححه وأشرف عليه: الشيخ حسين الأعلمي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت. 1997م.
- الطباطبائي، للسيد محسن بن مهدي الطباطبائي الحكيم. مستمسك العروة. مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي. د ط. 1984م.
- الطبرسي، أبو علي الفضل الحسن (548 هـ). مجمع البيان. حققه: لجنة من المحققين الأخصائيين. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت – لبنان، 2006م.
- الطبري. دلائل الإمامة.الآملي الصغير، محمد بن جرير بن رستم (القرن الخامس).إيران؛ قم. ط1. 1413 هـ.
- الطوسي (460ه)، أمالي الشيخ الطوسي. تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم. مكتبة الداوري، قم المقدسة. ط1. 1964م.
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (460 هـ). التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي. دار احياء التراث العربي، بيروت. د ط. د ت.
- العياشي، محمد بن مسعود (320 هـ). تفسير العياشي. المطبعة العلمية. طهران. ط1. 1422 هـ.
- القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم (329 هـ). تفسير القمي. صححه: السيد طيب الموسوي الجزائري. دار السرور. بيروت. لبنان، د. ط. د. ت.
- الكاشاني، محسن الفيض (1091 هـ). تفسير الصافي. مؤسسة الهادي – قم المقدسة مكتبة الصدر – بطهران، ط2. 1416 هـ.
- الكوفي، فرات بن إبراهيم (352 هـ). تفسير فرات الكوفي. تح: محمد كاظم. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت – لبنان. 1990م.
- المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار.مؤسسة الوفاء بيروت – لبنان. ط2. 1403هـ– 1983 م
- المفيد، الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام)، تح: مؤسسة البعثة. ط 2. 1993م.
- النعماني، ابن أبي زينب. محمد بن إبراهيم (320هـ). الغيبة. نشر الصدوق. طهران. ط1. 1397 هـ.
- يول، براون. تحليل الخطاب. ترجمه: د. محمد لطفي الزليطي، ومنير التريكي. ط1. دار الفجر للنشر والتوزيع. 1418هـ، 1997م.